https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/821

ISSN 2477-9857 E-ISSN 2800- 0919 "Assiaq" scientific journal مجلة "السياق"

المجلد: 09 العدد: 03 (2025) **ص 67 / 74**

صورةُ الفَرَس في المخيال الشّعري التّواتي الفصيح – قراءة ابتدائية في قصيدة أوصاف الخيل الجياد، وشرحها للشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمن التواتي-

The image of the horse in the eloquent poetic imagination of Al-Tawati - an elementary reading in the poem Descriptions of Horses and its explanation by Sheikh Sidi Al-Bakri bin Abdul Rahman Al-Tawati -

مصطفى حاج قويدر*

جامعة الجزائر1 بن يوسف بن خدة (الجزائر)

Hadj01000@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال: 2023/11/12

تاريخ القبول: 2024/11/28

الكلمات المفتاحية:

- ✓ صورة الفرس
- ✓ المخيال الشعري
- ✓ البكري بن عبدالرحمن التواتي

الملخص:

تهدف هذه الورقةُ البحثية إلى استجلاء صورة الفَرَس في المخيال الشّعري التّواتي الفصيح من خلال قراءةٍ أوليةٍ لقصيدةِ **"أوصاف الخيل الجياد"**، وشرحها للشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمن التّنلاني التواتي(1339هـ)، حيثُ تُعتبَرُ هذه القصيدة مِن أَنفَسِ مَكنُونَاتِ ديوانِ الشّعرِ العربيّ التّواتي الفصيح، كما أنَّ شَرْحَها أَثْرى المكتبةَ التُّراثيةَ الإسلامية المُصنّفَة ضِمْنَ خِزانةِ أَدَبِ الفُروسيّةِ والخَيل.

ونظراً للأهميَّةِ العِلميّةِ والأدبيةِ لِهذِهِ القصيدةِ وشرحِها سعى الباحثُ لِتفْكِيكِ مَضَامِينِها المعرفيّةِ، وإبرازِ قِيَمِهَا الرّوحيّة وأبعادِها الفِكريّة؛ بُغيَةَ الوقوفِ على صُورةٍ جَليّةٍ للفَرَسِ في المِخيالِ الثّقافي التواتي العَالِم.

Abstract :

This research aimed to clarify the image of horses in the eloquent poetic imagination of Al-Tawati through a preliminary reading of the poem "Descriptions of Horses", and its explanation by Sheikh Sidi Al-Bakri bin Abdul Rahman Al-Talanani. Tawati (1339 AH),Where this poem is considered one of the most precious treasures of the Diwan of Eloquent Arabic Poetry, and Its explanation also enriched the Islamic

Article info

Received ……..

Accepted ……..

Keywords:

- ✓ *The image of the horse*

* المؤلف المرسل

heritage library, which is classified in the treasury of equestrian and horse literature.

- ✓ *The poetic imagination*
- ✓ *Al-Bakri bin Abdul Rahman Al-Tawati*

1. مقدمة:

إنّ للخيل علاقةً قويّةً مع الإنسانِ، تَمتَدُّ جُذورُها عبرَ الزّمن القديم، علاقةً ضاربةً في عُمقِ المسارِ الطّويلِ للحضارة الإسلاميّة العربية، باعتبارِها مطيَّةَ ركوبٍ وزينةً وفخراً حالَ السِّلمِ والاطمئنانِ "**لِتَرْكَبُوها وزِينَةً**"، أو قوّةً حاسمةً لإرهابِ العدوّ، وسِلاحاً رادعاً لقهرِ الخُصُومِ حالَ الحَرْبِ والجهادِ "**تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم**"؛ وجاء القرآنُ الكريمُ مُجَلّيًا لهذِه الرابطةِ الوطيدةِ، مُشيداً بِفضْلِ الخيلِ ومكانتِها في غيرِ ما آيةٍ من كتاب الله تعالى حيثُ قالَ مُقسِماً بها: "**والعادياتِ ضَبْحاً فالمُورِيَاتِ قَدْحاً فالمُغِيرَاتِ صُبْحاً**"؛ وجاءت أحاديثُ النّبي صلى الله عليه وسلم مؤكّدةً لكلّ هذِهِ المعاني حيثُ قَرن الخيلَ بالخيرِ عقداً لا ينفكُّ إلى الأبدِ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة**)) *رواه مسلم*، وجَعَلَ الخيلَ مباركةً، تَتْبَعُها البركةُ حيثُما حلّت وارتحلت؛ بل ذَهب بعضُ الصّحابةِ الكرام إلى أن للخيل دعاءً كدعاءِ البَشر، وأنّ بعضَ الخيلِ مُستجابَ الدّعاء، فقد رُويَ عن أبي ذرّ الغِفاريّ أنّه قال: ((**ليسَ من ليلةٍ إلاّ والفَرَس يدعو فيها ربَّه فيقولُ: ربّ إنَّك سخّرتَني لابن آدمَ وجعلتَ رزقي في يدِه اللّهم فاجعلني أحبَّ إليه من أهلِه وولدِه**)). وأصل الحديث عند النسائي.

كما كان للأدب والشّعر العربي –قديما وحديثا– حظٌّ وافرٌ من العِنايَةِ والاهتمامِ والإشادَةِ بالخيلِ نظْماً ونَثْراً، نظراً لشدّة تَعلُّقِ العربيّ الأصيلِ بفرسِه محبّةً وانتِقاءً ورِعايةً وخِدمَةً حتّى قيل: "**ثلاثةٌ لا يَأنَفُ الشّريفُ مِن خِدمتِهِم: الوالِدُ والضّيْفُ والفَرَس**"، وكانوا دأبُهم أن يُنشّؤوا أبناءَهم على حُبِّ الخَيْل ويُربُوا فتيانَهم على ركوبِها وامتطائِها، لارتباطِها عندَهُم بمعاني الفروسيّةِ والشّجاعةِ والفُتوّة، وتَعلُّقِها بمظاهِرِ العِزّ والشّرَفِ والصَّولَة والوجاهَة.

هذا وقد حفظتْ لنا كتُب التراث، ودواوين الشعراء، جمّاً غفيراً من كلامِهم في التّغنّي بأوصافِ الخيلِ الجيادِ، والفخرِ بأنسابِ الجِيادِ العِراب، والتّنويه بالنّوازع الإنسانيّة المتبادَلَة بين الفَرَس وفارِسِه، كما قال عنترةُ بن شدّاد في مُعلّقَتِه مُصوّرا فَرَسَه وقد تألّمَ لَه كثيراً جرّاءَ ما ألمَّ به من أذى في المعركة:

ما زلتُ أرميهِم بغُرّةِ وجهِـــه ... ولَبانه حتّى تسربــَلَ بالدّمِ
وازْوَرَّ من وَقْـــعِ القَنَـا بِلبانـِه ... وشكـــا إليّ بعَبرَةٍ وتَحَمْحُم
لوكان يَدري ما المحاورةُ اشتَكى ... ولكانَ لوْعَلِمَ الكلامَ مُكلّمي

بل الأعجب أنّ العربَ في الجاهليةِ لم تكن تَصون شيئاً من أموالِها ولا تكرمُه، صيانتَها للخيلِ وإكرامَها للجياد؛ حتّى إنّ الرجلَ منهم ليَبيتُ طاوِياً ويُشبِعُ فرسَه، ويؤثِرُه على نفسِه وأهلِه وولدِه، فيسقيه المحْضَ، ويشربون الماءَ القُراح، كما قال قائلهم:

مُفـــدّاةٌ مكرّمـــةٌ علينا ... يُجاع لها العيالُ ولا تجوعُ

وقول الآخر:

أُعلّلُ أهْلي عن قليلٍ ... وأسقِيه محضَ الشَّوْل والحيّ هاتف متاعِهم

وهذا لم يؤثر عن غير العرب من الأمم، حتى أن الجاحظ (ت 255هـ) قال: ((**لم تكن أمّة قطّ أشدّ عجبا بالخيل ولا أعلم بها من العرب**))، إضافة إلى أنّ بعض الأبيات سارتْ مسارَ الأمثالِ، وتداولَتْها الألسنُ بالبيان، من ذلكم بَيتُ المتنبي الشهير:

اللّيلُ والخيلُ والبيداءُ تَعرِفُني ... والسّيفُ والرّمحُ والقِرطاسُ والقَلمُ

وقوله أيضا:

أعزّ مكانٍ في الدُّنا ظهر سَابِح ... وخيرُ جَليسٍ في الأنامِ كتـــابُ

كما زخرت المكتبة العربية بالمصنّفاتِ والتآليفِ الكثيرةِ المُفردة – فضلا عن المُتضَمَّنة– التي تناولت كلَّ ما يتعلّقُ بالخيلِ، أنسابِها، وأوصافِها، وأسمائِها، وفضائِلِها، وطبائِعها، وحركاتِها، وطُرقِ تربيتِها، ووسائلِ العِنايةِ بها، وبيانِ أمراضِها، وأدويتِها وغير ذلك...؛ منذ البدايات المبكرةِ للتأليف إلى عصرنا الحاضر بدءا بكتاب ((أنساب الخيل)) لابن الكلبي (ت 204هـ)

الذي يعدّ من أقدم ما أُلِّفَ في الخيل، مروراً بمؤلفاتِ الأصمعيّ (ت 216هـ)، وابن الأعرابي (231هـ)، حتى السيوطي (911هـ)، والبُلقيني، وصولا إلى كتاب ((عقد الأجياد في الصّافنات الجياد)) واختصاره ((نُخبَةُ عقدِ الأجيادِ)) كلاهما للأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري (1913م) وغيرها كثير...

ولعلّ هذه الورقة من دوحة هذا الملتقى تَرومُ تلمُّسَ صورةِ الفَرَس، ومكانةَ الخيلِ في مِخيالِ شاعرٍ عَربي تواتيّ أبعدَ أسلافُه النُّجعَةَ في تخُوم صحراءِ الجزائرِ العميقةِ، وتقادَمَ بأهلِه الزّمنُ جدّاً عن أرومتِه الفيحاءِ بجزيرةِ العَرَب، بَيدَ أنّ عروقَه ظلّت تنبضُ بدماءِ العروبة، ونَفْسُه تشرّبَت خصالَ وأخلاقَ الفَارس العَربيّ، فجادت قريحتُه بقصيدةٍ من عيونِ الشعرِ العربيّ فصاحةً، وبلاغةً، ضمّنَها أوصافَ الخيل الجياد، وعرّج فيها على بيان كثير من خصال الجياد العِتاقِ، تنبئ عن معرفةٍ، وتجربةٍ، ومراسٍ في التعامل مع الخيل؛ وما عَمَلُ الباحثِ في هذِهِ الورقةِ إلاّ قراءةٌ أوليّةٌ موجزةٌ لمضامينِ هذه القصيدةِ من خلالِ محورين أساسيين اثنين:

- ✓ التعريف بناظم القصيدة، وشارحها الشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمن التنيلاني التواتي.
- ✓ تلمُّس صورة الفرس في مخيال الشاعر من خلال الوقوف على مضامين القصيدة وشرحها.

2. نبذة عن حياة الناظم سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن التنلاني التواتي (ت 1339هـ)

1.2 اسمُه ونسبُه وولادتُه ونشأتُه:

هو الشّيخ العالمُ الفقيه الأديب الشاعر سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن بن محمد الطيب بن أحمد بن مَحمد -فتحا- بن عمر بن أحمد بن يوسف، التنلاني أصلا، البكريّ مولداً ومنشئا ودارا، العثماني الأمويّ نسبا ومحتدا. (سيد اعمر، 2002، ص 105).

ولد بالزاوية البكرية (موطن أخواله) سنة 1260هـ، ونشأ وتربى وتعلم بها؛ حيث حفظ القرآن الكريم، وفنون العلم الشرعي من تفسير وحديث وفقه ونحو على يد خاله الشيخ الفقيه العالم سيدي الحسن بن سعيد من آل سيدي البكري (ت 1286هـ) ولازمه واختصّ به إلى توفي، فانتقل إلى قصر (كالي) بناحية قورارة حيث قرأ على الشيخ الشريف مولاي عبد الحاكم بن مولاي عبد العالي ولازمه أيضا إلى أن توفي الشيخ فرجع إلى بلد أخواله زاوية سيد البكري فقيها مدرسا وأحيا بها مجلس خاله سيدي الحسن في الفقه والعلم إلى أن توفي رحمه الله بالزاوية البكرية سنة 1339هـ ؛ وقد تتلمذ على يديه جمْعٌ من أعيان الزاوية البكرية وعلمائِها كالشيخ سيدي عبد العزيز بن الصافي وغيره. (التنيلاني، 2017، ص 25)

2.2 مكانته العلمية ومؤلّفاته وثناء العلماء عليه:

كان الشيخ رحمه الله عالما مُتضلِّعاً في الفقه، واللغة، والنحو والعروض، وكان شاعراً مجيداً، حتى قيل عنه أنّه كان بحرا لا يجارى ؛ بل كان من عجائب الله نظما ونثرا وتأليفاً وفتوى؛ إذا أخذ القلم لا يحتاج للتأمّل بل يكتب ما أراد في الحال، وإذا سئل عن مسألة يقول للسّائل أتريد الجواب نظما أو نثرا؟؛ كلّ هذا مع تفرّغٍ للعلم والتدريس والتأليف ونظم الشعر، وانقطاع عن الدنيا والزّهد في ملذّاتها وبعدٍ عن أهلها. (بلعالم، 2005، ص 162)

مؤلفاته: صنّف الشيخ في مختلف فنون العلم من فقه ونحو وأدب وحكمة نذكر من أهمّها: الأولويات (أرجوزة في التوحيد والفقه والتّصوّف)؛ ورسالة في الميراث؛ وشرح على همزية البصيري؛ والأرجوزة العنبرية في التعريف بعشبة الشاهي ومنافعها، وله منظومة في علم الفلك؛ إضافة إلى مكاتبات ومراسلات ومساجلات وقصائد عديدة ضمّنها ديوانا حافلا. (غيتاوي، 2013، ص 67-87)

2. 3 مكانته الشّعرية:

تعاطى أهل توات جميع فنون الشعر، وتناولوا جميع أغراضه، من مدح وفخر ورثاء وغزل .....الخ؛ إلا أنّ الفنّ الغالب عندهم هو الشعر التعليمي حيثُ تكثُرُ الأراجيز التعليميّة، والمنظوماتُ التدريسيّة، التي تُثري دروس وحلقات العلم في الزوايا والمدارس؛ كما كان لمدح النّبي صلى الله عليه وسلم القدح المعلّى، والمكانة الأبرز في قلوب شعراء المنطقة الفحول (جعفري، 2009، ص

162)؛ والشيخُ مثالٌ بارزٌ لعالمٍ فقيهٍ، وشاعرٍ بليغٍ أولِعَ بالشعر ونظمِه، فجادت قريحته بالقصائد الطوال، في شتّى الأغراض، إلاّ أنّه اشتهر بمدح النبي صلى الله عليه وسلم حتى فاقت قصائده في مدح الجناب النبوي بضعا وثلاثين قصيدة على اختلاف بحور الشعر، منها قصيدة خالية من الحروف المُعجمَة نظمها على بحر الطويل مطلعها:

سما لرسـول الله مدحٌ مكرّمٌ وسِرّ علوه الأوّدَ المُسوّدا
وساعَدَ مادِحاً علوُّ محمّـدٍ وصار إمامَه وصار مسوّدا

وله قصيدة أخرى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم خاليةٌ من حرف الألف:

محمّد كنزُ كلّ كونٍ وعينُه عليك مكوّني يصليّ بكثرة
محمّد ذو وصفٍ عزيزٍ تعزّزَت قريش به في كلّ وقتٍ وجلة

أمّا في الرّثاء فقد رثى شيخَه وخالَه الشيخ سيدي سعيد بن الحسن رحمه الله بقصيدة عصماءَ استهلّها بمطلع غَزَلي جاء فيها:

ما لسُعدى رَمَت فؤادي بلَحْظٍ وكوتْني بنارِ هَجْرٍ جِهَارا
غَلت بوصالِها وتصـدّت بالصّدود وصيَّرْته شعارا

ومن دلائل مكنته الأدبية جوابه عن سؤال على سبيل الإلغاز أورده إمام الحرمين الشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي نظما سماه: "اختبار كل عارف من أنباء المعارف"، فأجابه صاحب الترجمة نظما أيضا. (التنيلاني، 2017، ص 34-38).

3. تلمّس صورة الفرس في مخيال الشاعر من خلال الوقوف على مضامين القصيدة وشرحها

1.3 عتبات النص(القصيدة):

يمكن اعتبارُ هذه القصيدة من عيون الشعر التواتي الفصيح إن في تعداد أبياتِها التي بلغت نحوا من 34 بيتا، أو في تفرُّدِ موضوعِها عن الخيل وأوصافها، أو في بلاغةِ الأسلوب وفصيح الألفاظ، ضمن نسَق لغوي قويٍّ جدّا، صعّب على القارئ العاديّ أن يتوضّحَ معاني بعض الكلمات، ممّا أحوج ناظمَها—رحمه الله- إلى أن يضعَ عليها شرحاً مختصراً " **يحلّ مُقفَلَها ويبيّن مشكلها ويفصّل مُجمَلَها ويسهّل معقلها، ويفتضّ بكرتها، ويَفتِقُ زهرها، وينشُر نَشرَها؛ لأنّها كانت أمنعَ من عُقاب الجوّ، وأصعب من صعود مصدر النّوّ، لأنّها تَنبو عن أفهام الجمّ الغفير من أبناء الزمان، لما احتوت عليه من لغات العرب ذوي اللّسان**" (التنيلاني، 2017، ص 75)؛ ولعلّ مردَّ ذلك الغموض والالتباس -حسب الناظم- أنّنا " **في زمن الألسن فيه تقلقلت، والأفهام فيه تبلبلت، فضلُّوا بذلك عن فهم السنّة والكتاب، فعدِموا صفاءَ حدّة الألباب، فما أعظم العلم بالعربية من منّة، وما أعظم الجهل بها من محنة**" (التنيلاني، 2017، ص 75) هذا توصيفُه لأهل زمانِه فما قوله لو رآى غُربةَ العربية في زماننا. فالله المستعان.

كما نجدُ أنّ الناظمَ لم يجعل لقصيدتِه عنواناً إلاّ ما أشار إليه في شرحِه على القصيدة حيثُ قال بعد الاستهلال: " **أمّا بعد: فلمّا نظمتُ قصيدةً في أوصافِ الخيل الجياد...**" (التنيلاني، 2017، ص 74) ؛ وقال في ختام الشرح: " **وهذا ما وعدتُ به من شرح هذه القصيدة التي هي في أوصاف الخيل فريدة...**" (التنيلاني، 2017،ص 125)؛ فلعلّ ذلك ما حدا بمحقّقِ الشّرح -اجتهادا منه- أو الناشر أن يضعَ عنواناً على غلافِ الكتابِ المطبوعِ " **أوصاف الخيل العراب**"، ويثبت داخل الكتاب " تحقيق مخطوطة كتابِ أوصاف الخيل العراب"، ولم يُشِر المحقّق إلى أيّ عنوانٍ للقصيدة، أو للشرح على النّسخ المخطوطة، مما يُقوّي احتمالَ أن النّاظم لم يضع لقصيدتِه عنواناً وهذا الأمرُ من الوجهة النقدية المعاصرة يروقُ لأصحابِ نظرية القراءة والتّلقي، حيث يُعتبَر مزيّةً وأسلوباً إبداعيا وجماليا ذكيّا جدّا من شاعرٍ كان يعيشُ في عصرٍ نُعِت بالانحطاطِ والضّعف، والحجّةُ النّقديةُ لدى أرباب هذه المناهجِ النّسقيةِ، أن خُلُوّ القصيدة من العنوان يُفسِحُ المجال لقارئِ النّص (القصيدة هنا) أن يسيحَ بخيالِه لوضعِ عنوانٍ يستنتجُه بنفسِه من خلالِ فهمِه للنّص بعيداً عن سطوة الكاتب، وهو بذلك يُقيمُ علاقةً ودّية حميميّةً بين النّصِ ومتلقيه، بُغيَةَ الزّيادة في تأثيث النّص، وتكثيرِ فرضيات انفتاحه على مُتلقّيه عبر العصور، ووفق إمكانية الاكتناز المعرفي لديهم.

2.3 المضامين المعرفية والحمولة الروحية للقصيدة:

قد يجنَحُ القارئُ من أوّل وهلةٍ إلى عَدّ القصيدةِ ضمنَ قصائد الوصف التي عَرفَها الشعر العربي القديم، خاصّة وأنّه استهلّ قصيدتَه بمطلعٍ غَزليّ رقيقٍ كدأب فحولِ شعراءِ العرب في قصائدهم، ولما في ذلك من تلطيف الطّباع وشدّ الأسماع كما نبّه على ذلك الناظم في شرحه؛ جاء في مطلع القصيدة :

فإن تسألي عَنّي وما كانَ سانِحا بفكري فألقي السّمعَ يا ربَّةَ الخِبا
تريني يـا أمّ البنين مُحدّثـــــا بغير قـــراع الــدارعين الكتائبا

بيد أنّ القارئ للقصيدة مع قِصَرها، والمتمعّنَ في أبياتِها مع قلّتها، يتلمّسُ تَنوّعا في حمولتِها المعرفيّةِ المختلفة المصادر والدلالات، ولعلّ مردَّ ذلك إلى الارتباطات الرّوحية والوجودية البارزة في القصيدة، والتي ساهم شرحُ الشيخِ نفسِه في تجليّتها بشكل أوضحَ للقارئ والمتلقّي؛ فالقصيدةُ مُتخَمَةٌ بمعالي القيم ورفيع الأخلاق، بالرغم من أنّها تَحُوم حول تَعدادِ أوصاف الخيل الجياد إلاّ أنّها احتوت أبعاداً دلاليةً قويّةً، تُوحي وتشيرُ من طرْفٍ خَفيّ إلى عدّة قضايا مهمّة، نشير إلى بعضها لِماما:

- **قيمة الإيمان والتعلق بالله ونفي التشاؤم والطّيرة**

أشار الناظم إلى قضيّةٍ مشهورةٍ حيثُ يذكرُ بعض من ألّف في الخيل أنّها مصدرُ شؤم كما أنها مصدرُ سرور وخيرٍ وبركةٍ، وأشار إلى هذا في قوله:

به أنبت الرّحمـــن للخير ستّةً من النّخل نُضّرا كما الزّهو أطربا
بدير حزامٍ في عَذارٍ أمـــامَ في أسافل عرقوب للاعداء عَرقَبـــا
كذا عصرة الرّكاب سادسُها وما بقي من نخيل للمعاكسةِ انسُبـا

ومعنى كلام الناظم أنّ العرب كانوا يتفاءلون بنخلات سِتٍّ تكونُ على جسم الجواد، و النّخلة كناية عن استدارةِ الشّعر في موضعٍ من بدن الفرس مستديرا أو مستطيلا، ويكونُ محلُّها ناعما زاهيا لما تُشير إليه من الفأل الحسن؛ أما غيرُ هذه السّت فهي ممّا تشاءَم به العرب وتطيَّروا به، وقد بَرِئ الناظمُ من هذا القولِ بعد أن حكاه منسوباً للعرب، فأردف قائلا معلّقا الأمورَ كلّها بالله:

فما ثَـمّ إلا اللهُ لا ربَّ غيرُه وأفعالُه في الكون حسبي به ربّا

وقد زاد هذه القضيةَ بياناً في شرحِه فقال: " **أي ما ثَمّ في الموجودات على التّحقيق إلاّ الله وحده، وما ثمّ إلا أفعالُه في المكوَّنات لا تأثيرَ لشيءٍ من الكائنات في شيء ما، والتّشاؤم في النّخلات من قبيل الطّيَرَة والطيرة من قبيل الباطل بمنزلة السّرابِ والسرابُ لم يكن شيئا**" (التنيلاني، 2017، ص 117)؛ ثم فَسَّر –وهو العالم الفقيه – حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المُوهِم لهذا الأمر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((**إن كان الشّؤم في شيءٍ ففي الدار والمرأة والفرس**)) *رواه البخاري*، وبيّن أنّ العلماءَ نصّوا على أن معنى شؤمِ الفرسِ هو جُموحُها وعدمُ انقيادِها؛ وأضاف أنّ أيَّ شرحٍ يُشيرُ إلى التّطيّر بالخيل تردُّه النّصوصُ الصريحةُ كقول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ((**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**))؛ وما ورد أنّه صلى الله عليه وسلّم سمعَ رجلاً يَسُبُّ فرسا فنهاه عن ذلك. (التنيلاني، 2017، ص 120).

- **قيمة الجهاد في سبيل الله**

نبّهَ الشاعرُ إلى أنّ معرفةَ أوصاف الخيل الجيادِ العتاقِ من أجْلِ كسبِها وارتباطِها يُرادُ به الجهادُ في سبيل الله، واعدادُ العُدّة والقوّةِ لإرهابِ أعداءِ الله، ورفْعِ رايةِ الإسلام، وهو ما عبّر عنه صراحةً في مستهل قصيده:

فَما هِمّتي إلا جِهـادي أمّةً من الكُفر والأرجاس أسقيهُم العَطْبا

وقد تظافرت نصوصُ القرآن الكريم والسنة النبوية المنوّهةِ بالخيلِ وفَضلِها، والمُترَتّبةِ على ارتباطِها الأجورَ الجزيلةَ لأجْلِ هذه المعاني الشريفة السّامية، من ذلك قول الله تعالى الصريح: ((**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباطِ الخيل**))، و قول النبي صلى الله عليه وسلم في أجر المومن الذي يَحتَبِسُ فرسا في سبيل الله: ((... **فإنّ شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة**)) *رواه البخاري*؛ ولمّا كان الوعيُ بالسّياق الزّمني الذي نُظِمَت فيه القصيدةُ، والظّرفِ التّاريخيّ الذي وضِعَ فيهِ شرْحُها، يمكن أن يُعطيَنا فكرةً عن الحال التي كان يَشعُرُ بها النّاظم عند نَظْمِه للقصيدة، والحماسةَ التي كان يؤلّفُ بها شرحه، ابتغاء بَثّ رُوح الفروسيةِ والشجاعةِ، وإحياءِ معاني الشّهادةِ والجهادِ في سبيلِ الله في نفوس أهل توات من أجلِ التّصدّي للاستعمار الفرنسيّ الذي كان على تُخُوم توات من جِهتيْها الشّرقية والجنوبية؛ فالشّيخُ –رحمه الله– عاصَرَ دخولَ الاستعمار

الفرنسي لأرضِ توات سنة 1900م، وعايَشَ المقاومات الشّعبية التي سبَقت دخوله، وله قصيدة في هجاء فرنسا عند دخولها لتوات جاء فيها:

ربّ إنّ فرنسا الكفر جاروا في تـوات وجـازفوا بفساد
ختلوا قتلوا وصالوا وقتّلُوا وأضلّوا وخاطروا بعِنـاد
خَوّفُوا أمّةً توحِّدُ ربّا واحدا أحدا بلا أضداد

وقال رحمه الله في مناسبة أخرى مؤرّخا لتلك الحقبة السّوداء: "... **أما بعد فقد تجدد على هذا الإقليم التواتي ما كان يخاف عليه من قبل الأن وهو تهافت طاغية الفرنسيس عليه لعنة الله بالعدد والعديد، والأزل والزّل، والقتل والأسر بعام سبعة عشر وثلاثمائة وألف في طرفه الجنوبي الذي هو عين صالح ثم في طرفه الشمالي في هذا العام الثامن عشر...**". (بلعالم، 2005، ص 165)

- **قيمة الكفاءة العلمية والمكنة الشعرية للناظم**

سبق بيانُ مكانةِ الشاعرِ العلميةِ وثناء العلماء عليه، وهو ما ظهر بصورة جليّة في القصيدة، ولعلّ من أبرز الأمور الدّالة على مكنته الشعرية وانقياد القريض لقريحته الأدبية جمعه في بيتين ما ورد متفرّقا من الأوصاف المحمودة في الخيل، مما جاء في أخبار العرب أن الحجاج بن يوسف سأل ابن القَرِيَّة عن صفة الجواد فقال: نعم .. أصلح الله الأمير الطّويلُ الثلاث، القصيرُ الثلاث، الرّحبُ الثلاث، الصّافي الثلاث، فقال الحجاج صفهنّ وبين لفظك، فقال: أما الطويل الثلاث فالساق والعنق والذراع؛ وأمّا القصير الثلاث فالعسيب والرّسغ والظهر؛ وأما الرّحب الثلاث فالجوف والفخذ والجبهة، وأما الصافي الثلاث فالأديم والعين والحافر؛ وقد جمعها الناظم في قوله :

طويـلُ التّليـل والذراعِ وأذنِه قصيرُ العسيب والمطى الرّسغ مُحربا
رحيبُ مناخِرٍ وجوفٍ وجبهـةٍ وصافي الأديمِ العين والحافرِ اعـربا

3.3. أوصاف الخيل الجياد من خلال القصيدة

بعد المقدّمة الغزلية للشاعر لخّصَ الباعثَ على نظمِه للقصيدة، ثم عرّجَ بعدَها مباشرةً على ذكر أوصاف المُنتخَب من الخيل الجياد لأنّها أشهرُ ما يُرْهَبُ به أهل الكفر والعناد، ومعلوم أن الفَرَس الأصيل العتيق لابد أن تتوافر فيه مجموعةٌ من الصّفات الخَلْقية والخُلقية، فحصَرَ أهمّ هذه الأوصاف ليسعى في اقتنائها مَن له جدّةٌ وإنصافٌ ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1- الأَجرَد: وهو القصير الشعر
2- الأقَبّ: الضام البطن غير ناتئه نتوءا يلحقه بالأتن العشار.
3- النّعاميّ: منسوب إلى نعامة وهو فحل كريم للحارث بن عبّاد إليه تنسب الخيول الكريمة.
4- الطِّمِر: السريع
5- المِضَبّ: كثير العرق لأنّه أدعى لاتساع جسمه وسلامته من احتباس فضلاته.
6- السّابح: السّريع.
7- الجواد: الكريم من الخيل.
8- الحصان: الذكر من الخيل.
9- الصّافِن: الذي يرفع إحدى قوائمه ويقف على ثلاث (ج. صافنات).
10- المُقْرَب: المعدّ للحرب غير الممتهَن في غيرها.
11- الواء: الشديد
12- المِسَحّ: السريع.
13- الكُميْت: شديد الحمرة مع سواد العَرف والظهر (ج. كُمْت). ولم يذكر الشاعر من ألوان الخيل إلا الكُمتة مع أن المصنفات عدّدت ألوانهم، وقد اعتبر الأصمعي الكمتة أحب الألوان إلى العرب مع الحوّة (خضرة تضرب إلى السّواد)، وذلك أنّ الكُمت أصلب الخيل ظهورا وحوافر.
14- العِجْلَزة: الفرس الشديد
15- العُنجُوج: الفرس الطويل العنق (ج. عناجيج).
16- المِرخاء: السريع.
17- المِحضِير: العدّاء من الخيل.
18- أمين العُجاية: سالم العجاية والعُجاية عَصَبة في باطن اليد.
19- الجِرشِع: الضخم الصدر
20- العليّ الأقطار: الطويل القامة والقوائم الفخم المفخّم.

21- الخاطيّ:كثير اللحم.ولعل الصواب (الخاظي) بالمعجمة

22- غَرْد النَّسا: شديد النّسا غير مسترخيه، والنَّسا عِرق يستبطن الفخدين حتى يصير إلى الحافر. ولعلّ الصواب (عرد النّسا) بالمهملة

23- الناشز الأكتاد: المرتفع الأكتاد، والكتد هو مابين الوسط والكاهل.

24- ضخم الصدر (رحيب الكلكل).

25- سامي القُصيرى: اي المرتفع آخر الأضلاع.

26- سامي التّليل: مرتفع العنق.

27- مُفعَم الدّسيع: أي ممتلئ لحم الدّسيع وهو مركّب العنق في الكاهل.

28- قصير الظّهر.

29- طويل العنق: وقد كنّى عن هذين الوصفين بقوله:

قريب الذي بين المطا وقطاته بعكس القذال والصّلا يعرض الشّبا

30- شِدّة الانتباه.

31- لِينُ الملمس، أي أملس الصهوة، وأملس العَرف، وهذا لأن لين الملمس يدلّ على جودة الخيل وعتقها.

32- الضّليع: عظيم الأضلاع المنتفخ الجنبين.

33- خفقان القلب واضطراب الجلد.

34- تَصلُّب الكفل (العجز) وملوسته

35- ارتفاع ووساعة الحارك أي الكاهل وهو مستقر فروع الكتفين.

36- عَبْل الجزارة والشّوى: غليظ القوائم حيث ملتقى المفصلين.

37- الجيّاش: الذكي القلب النشط في السير

38- ذبول وضمور البطن.

أمّا الأوصاف القبيحة في الخيل: فقد أتى بها النّاظم عَرَضا في القصيدة، وبعضُها أدواء تصيب الخيل فتعيبها وهي:**الفَجا**: اغراط تباعد ما بين الكعبين / **الصَّكك**: اصطكاك الكعبين أو اضطراب الركبتين والعرقوبين كما في القاموس/ **الدّخيس**: الدّخس ورم يكون في أطرة حوافر الفرس يظهر كظهور الكعبين/ **النّهَك**: ضعف المرض./ **الوجا**: داء يصيب الحافر يبلغ باطن الرسغ/ **الشّظا**: هو عظم صغير لاصق بالذراع مابين الركبة والمخلخل.

ومن جميل اللّطائف التي أوردَها التنيلاني في شرحه (ص 107-108) ذِكْرُه لطريقةٍ اشتهرت عند العرب (ابن عبد ربه، 1989م، (1/ 137)) يُفرّقون بها بين العُتُق والهُجُن من الخيل فإن الهجين يَثْنِي سنبكه عند الشُّرْب من الطست بخلاف العتيق، وهو ما ضمّنه قوله:

له سنبَك لم يُثنِه وقتَ شُربِه لعِتْقٍ مُبينٍ في نجارٍ تطيّبا

4. خاتمة:

ختاما يمكن أن نَخلُصَ بعد هذه القراءة السّريعة إلى النتائج التالية:

- تعتبر هذه القصيدة وشرحُها مساهمة في إثراء وإغناء المكتبة التراثية عن الخيل.
- احتوت القصيدة رصيدا معجميا ثريا في موضوع الخيل وأوصافها وأسماء نعوتها وشياتها، وساهم شرح الناظم للقصيدة في تجلية معاني الألفاظ الغامضة والغريبة.
- كما تعَدُّ القصيدة وشرحها شاهدا حيّا على مدى ما كان يحظى به الفرس من مكانة وعناية ومنزلة لدى أهل الصحراء عموما وتوات خصوصا.
- القصيدةُ وشرحُها تحتاجُ عَملا أكاديميّا متخصّصا جادا لكشف مصادر الناظم الفكرية والمعرفية، وبيان منهج المؤلّف في شرحه، والاهتمام بالمتن تخريجا وتوثيقا وتصويبا وتعليقا وشرحا وفق قواعدِ التحقيق العلمي المتعارف عليها بين المحققين.

5. قائمة المراجع:

- ✓ أحمد جعفري. (2009). *لحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7 هـ حتى نهاية القرن 13هـ*. الجزائر: دار الحضارة.
- ✓ ابن جزي. (1986). *كتاب الخيل*. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- ✓ ابن عبد ربه. (1989). *العقد الفريد*. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- ✓ البكري التنيلاني. (2017). *أوصاف الخيل العراب*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ✓ عبد العزيز سيد اعمر. (2002). *قطف الزهرات من أخبار علماء توات*. الجزائر.
- ✓ محمدباي بلعالم. (2005). *الرحلة العلية* . الجزائر: دار هومة.
- ✓ مولاي التهامي غيتاوي. (2013). *منّة الرحمن في جملة من حياة الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن*. الحراش، الجزائر: منشورات الدار العالمية.